إنت سوداني ولا مصري؟

إنت سوداني ولا مصري؟؟؟؟؟

كنت صغيرة جدًا ولا يتجاوز عمري الخمس سنوات، عندما انفردت بي ابنة جارتنا (تيسير) السودانية التي تكبرني بعام واحد في العمر وخمسة أعوام في الجسم في حوش سلم العمارة . ودار بيننا حوار لا أتذكر منه شيئًا مطلقًا، ولكن أتذكر تبعات الحوار من ضرب وشتيمة وشد شعر، كنت معتادة على تعدي تيسير علي بين الحين والآخر، لكن هذه المرة تعدت تيسير كل المرات، وأصبح ضربها أكثر إيلاما مما أفضى إلى بكائي.

لملمت أنفاسي .وقلت لها في شدة وغلظة (والله لخلي بابايا يضربك يا تيسير يا جزمة أول ما يرجع من الشغل)

لكن تيسير ابتسمت في خبث وقالت: (مستحيل ...أبوكي ما هيضربني)

سألتها في اندهاش: (ليه بقى إن شاء الله)

قالت في ثقة: (إن أبوكي سوداني زيي)

قطبت بين جبيني وقلت والشك في عيني: (لأ ..الكلام دا مش صح ...أنا بابايا مصري)

قالت لي وهي ترفع حاجبًا عن الآخر وقد استطال وجهها : (والله إنو سوداني)

قلت لها في حزم: (لأ ..بابا مصري)

وظلت تردد جملتها الأخيرة (والله إنو سوداني) عشرات المرات بنفس الثقة وأنا أرد عليها عشرات المرات بطريقة دراما الأفلام المصرية القديمة(لأ مصري مصري مصرييي) حتى صرخت في آخر مرة وهرعت إلى منزلي ودقات قلبي تتعالى وتسلل الشك إلي.

اتجهت إلى المطبخ حيث تقف أمي منهمكة في إعداد الطعام وسألتها (ماما .هو بابا مصري ولاسوداني؟)

ردت علي بدون أن تنظر لي(مصري) ..

قلت لها (تيسير بتقولي إن بابا سوداني) ..كانت أمي منهمكة جدًا، ولا ترد علي بسرعة ..ولا حتى تنظر لي ..مما أثار استيائي، وأعدت عليها الجملة الأخيرة..

فردت بصبر فارغ (يووووه ...أنا مش فاضية دلوقتي ..اطلعي العبي برة في الصالة ماتطلعيش على السلم ..تيسير مش فاهمة حاجة وصغيرة ..لما أقولك حاجة وهي تقول حاجة تصدقي مين؟؟؟؟)

قلت بلساني : (أصدقك إنت طبعًا) ولكن قلبي قال لي: (لأ ..أصدق تيسير بابا شكلو سوداني فعلًا.. حتى هو أسمر أوي زيهم ....شكل كدا تيسير بتقول الحقيقة وماما بتضحك عليا)

خرجت من المطبخ والشك يقتلني، وجلست في الصالون منتظرة عودة صاحب الشأن من العمل.

****

عندما عاد أبي من العمل، هرعت إليه وقلت له: (بابا ما تغيرش هدومك ..عاوزة منك حاجة مهمة أوي)

فجلس على الكرسي وأجلسني على قدمه وسألني (عاوزة إيه يا حبيبتي؟)

قلت له: (الأول ...إنت مصري ولا سوداني؟) ابتسم بشدة وقال: (أنا مصري ....إشمعنى؟)

تلمست الصدق في كلماته ..وتنفست الصعداء ..وقلت له : (الحمد لله ....ممكن بقى تيجي تضرب تيسير) ...قال في اندهاش (إشمعنا؟؟؟)

قلت: (تيسير قالتلي إنك سوداني ومش هتضربها)

قال لي مستفهمًا: (هي ضربتك تاني؟)

قلت له وقد تذكرت واقعة العلقة التي كنت قد نسيتها وبدأ وجهي يأخذ شكل الموشك على البكاء :(آه ..وشدتلي شعري وطلعتو برا التوكة كمان)

غضب أبي وقال لي :(طب تفرق إيه أنا مصري ولا سوداني؟ أنا كدا كدا هطلع أكسرها ...حتى لو أنا سوداني ..إنتي بنتي حبيبتي وهي وحشة وغلطانة وبتضربك كل شوية ..أنا هطلع أربيها دلوقتي)

خرج أبي وهو يحملني على ذراع واحدة إلى تيسير التي تلعب السيجا لوحدها في حوش السلم...

وجلس أبي على السلم، وأجلسني على قدمه ...ونادى تيسير ..وقال لها مبتسمًا (إزيك يا تيسير؟ عاملة إيه؟) ردت تيسير في أدب: (الحمد لله) واستطرد أبي: (إزي بابا، وإزي ماما، وإزي أخوكي)

وردت تيسير في أدب : (الحمد لله)

وأنا أترقب الحوار في صمت، عيني معلقة على أبي تارة وتيسير تارة أخرى ...ثم استطرد أبي:

(ليه يا تيسير تضربي عنان ...عنان أختك الصغيرة ..وإحنا جيران ... عيب كدا ..إنتي المفروض تدافعي عنها لو حد غريب جه يضربها ...

ولو هي غلطت أو زعلتك تعاليلي وأنا هضربها ...لكن كدا غلط ..أنا طول عمري بقول عليكي مؤدبة ...البنات المؤدبة ماتعملش كدا...)

ردت تيسير بأدب: (صح يا عمو ...ما هضروبها تاني)

وابتسم أبي لتيسير وقال لها (وعد؟) ردت تيسير في أدب (وعد) ثم أمرها أن تقبلني ..ففعلت في أدب شديد ...ثم حملني إلى باب المنزل لتناول الغداء وأنا صامتة ومصدومة وأرى تيسير تخرج لسانها لي من خلف ظهر والدي وترقص رقصة كيد شبيهة بعجين الفلاحة منتصرة لأنه لم يضربها . وبهذا دخل الحزن إلى قلبي .وأيقنت أنه سوداني.

ملحوظة :لم تكف تيسير عن ضربي عدة سنوات.